## الفصل الأول

## المـزدوجة

تدافعت الحزم الذهبية معانقة جبال السحاب بشوق لنهار جديد، ناقلة حرارتها للنسمات، مبددة برودتها، مانحة الدفء لأجساد تحركت في مختلف مسارح الحياة طالبة أرزاقها من حيث مكامنها، إطلالة الشمس هي أذان لبدء الحياة، تحفز كل خلية في الجسد، وتستنهض الهمة والروح وتدفعها نحو غايتها.

حركة دائبة لسيارات وحافلات شتى في الطرق الخارجة والمؤدية إلى مدينة (المكلا)، منهم من هو ذاهبٌ لمقر عمله، ومنهم من يستعد لبدء يوم دراسي جديد في أحضان جامعة (حضرموت) الواقعة خارج المدينة، في الأنفس أمل تخلقها تباشير الصباح ونسماتها.

ومن بين المركبات المارة، سيارة جيب فارهة رمادية اللون استقلها خمسة شبان في طريقهم خلال أيامهم الأولى من الجامعة، وهم يتبادلون الأحاديث بمرح، وتموج أركان السيارة بضحكاتهم المفعمة بالحياة، إلى أن وقعت أعينهم على ما دفعهم للهدوء والصمت، لقد عكر صفوهم المنظر الماثل أمامهم.

في منتصف الطريق وعبر منطقة (جول مسحة) الواقعة خارج (المكلا) رأوا صنفاً آخر من البشر، بملامحهم كانوا يحاولون قتل كل أمل، بل إفناء الحياة.

وجوه غطاها السواد، لم يظهر منها إلا وهج شرٍ، بريق عيون نافذة في كل ما حولها وما يمر قربها، تود لو تنفذ وتخترق وتتحقق لتكتشف أعدائها، أجساد مدججة بالسلاح، تباهى أصحابها بها، وفرضوا جبروت الصمت بقوتهم وعتادهم.

كانوا شباباً في ربيع العمر كالشبان الخمسة، هنا تقاطع دربان في مكان واحد، واختلفت المسالك نحو المستقبل.

مسلك يرى المستقبل بالقوة، وأخر يراه في درب العلم والكفاح.

كانت تلك العصبة تنتظر الجميع، بعددهم الذي لم يزد عن العشرة يستوقفون كل سيارة تمر، يسألون ويفتشون ما أثار ريبهم وما لم يثره قبل أن يسمحوا لها بالمرور.

الكآبة والضيق والخوف والقلق عم جميع المارين، بمن فيهم ركاب السيارة الرمادية الذين انتقل عدوى الصمت إليهم ماعدا قائد السيارة (طارق) الذي قطعه وهو يقول في ضيق:

-لو لم تكن تلك السيارات أمامي لانطلقتُ بأقصى سرعة.

قال ناصر -الذي كان يجلس إلى جواره- وهو يربت على يده مهدئاً:

-دعك من الرعونة الآن، ليسوا الدكتور (سامي) حتى تتجاهلهم هكذا.

امتثل طارق لأمر ناصر ضجراً، وحين حل دوره لم يهتز قيد أنملة، بل إنه لم ينظر إليهم، واكتفى بفتح زجاج نوافذ السيارة من عنده، حتى أشار له أحدهم بفتح حقيبة سيارته، فقال طارق في حدة:

-وما بها؟

-انهض.

قالها الملثم في حدة، نزل طارق ونفذ أمر الرجل الذي لم يجد بها سوى ثلاثة جوالين فارغة، فتركه، لتمضي السيارة بركابها بعيداً، فتنفس ناصر في ارتياح، بينما قال محمود في ضيق والذي كان يجلس خلف طارق:

-متى سيرحل هؤلاء؟

أطلق ناصر زفرة حارة ثم قال:

-إلى أن يشاء الله.

قال طارق في حدة:

-أكره الغرباء، وأن يفرض أحدهم أوامره علي.

-لقد تجاوزناهم.

قال صبري والذي كان يجلس إلى جوار محمود:

-للأسف سنظل نتعايش معهم، ومع الكثيرين على شاكلتهم، إننا نعاني بسببهم.

كاد محمود أن يتكلم لولا أن ارتفع صوت شخير وليد -رفيقهم الخامس- الذي ترك كل شيء جانباً مستسلماً لنوم عميق، ولم يبدُ عليه أنه انتبه لشيء مما حدث.

انتابت الجميع موجة ضحك عارمة فور انتباههم لأمره، قال طارق وهو يحدق في معالم الطريق أمامه:

-ليتنا نستطيع العودة لبيوتنا لنظفر بشيء مما يناله وليد الآن.

قال ناصر:

-لا تقل هذا، يكفينا إجازة لأكثر من سنة، دعنا نجرب شيئاً جديداً بعيداً عن أجواء الثانوية وجلسات البحر والمقاهي.

-وكأنك تعني بأن الدراسة الجامعية ممتعة؟

قال صبري:

-بالطبع لا يقصد ذلك، وأنت تعلم ما هو الشيء الأكثر متعة في ذهابنا للجامعة يا طارق، استغلال وقت المحاضرات ومغافلة الجميع للظفر برحلات خارج المكلا.

قال محمود في حماس:

-المرة القادمة يجب أن نذهب لنادٍ رياضي.

رد طارق:

-بل سأذهب لزيارة أية مدينة خارج المكلا، دعونا نتنزه قدراً كافياً.

قال ناصر في نبرة قلق:

-أكثر ما يزعجني في خروجنا من المكلا مرورنا بنقاط التفتيش الكثيرة.

قال طارق في سخرية:

-أتخشى أصحاب الرايات السود يا ناصر؟

-بل أخشى عنجهية هؤلاء.

-لا تقلق، سنمر مثل كل يوم، دعنا نستمتع بوقتنا كل ما أتيحت لنا الفرصة.

قال محمود في ضيق:

-ما بك يا ناصر؟ دعنا منهم، ولننسهم، ولنقطع الطريق في حديث غير هذا.

قال طارق في مرح:

-نعم، لننساهم، ها نحن نقترب من الجامعة، تُرى كيف سنقضي أوقات المحاضرات اليوم؟

ضحك رفاقه لقوله، وأخذت أركان السيارة تموج بأحاديث الشبان الأربعة المرحة مرة أخرى.

لسبب ولغير سبب، كان المرح اللا محدود سمة مميزة لطارق.

شابٌ في مقتبل العمر لم يتجاوز الثانية والعشرين ربيعاً، تلازمه ابتسامة مرح عريضة، رفيقة دائمة تجعله كالساخر من الأهوال، تتوارى حيناً لكنه لا يلبث أن يرسمها مجدداً على سحنة وجهه الأبيض لتزيده وسامة وضياء، ومع اختفاء أثر شعرة على وجهه بدا أصغر عن سنه، كمراهق صغير في المرحلة الثانوية.

ويخط الغرور والزهو تضاريسهما على قسمات وجهه بمجرد أن يُقدم على أي عملٍ يدلل به على اعتزازه بنفسه ووسامته وحُسن مظهره وأناقة ملبسه؛ نظارة شمسية أنيقة، سترة ذات الأكمام القصيرة، وبنطالاً من الجينز، أبرزتا معالم جسدٍ حددته رياضة دائمة وجعلته لائقاً متناسقاً، وتألقت في معصمه الأيسر ساعة كورين فضية فاخرة، أما التباهي بثرائه فتميزه ابتسامة كِبر واضحة، من ضمنها امتلاكه لسيارته الفارهة التي منحها إياه والده (عبد الكريم) بمناسبة نجاحه وتخرجه من المرحلة الثانوية، بقدر ما كان ضجر طارق من كل ما

يخص مسلك العلم والدراسة، إلا أن الطريقة الوحيدة لإرضاء والده والحصول على ما يريد منه هي زرع الأمل في نفسه بأنه سيصل إلى (المجد) عبر درجات العلم بين أحضان الجامعة التي تبعد عن مدينته (المكلا) نحو نصف ساعة، يذهب إليها كل صباح لا لشيء سوى إرضاء والده حيناً، وتحقيقاً لنزواته حيناً آخر مع أقرب الرفاق إلى قلبه.

فلقاءات نور الصباح مع الدوام الجامعي لا تمضي عبثاً بالنسبة له، ها هم رفاقه الأربعة المقربون برفقته في طريقهم خلال الأيام الأولى من الجامعة، وهم يتبادلون الأحاديث والضحكات بينهم.

عن يمينه، جلس (ناصر) شاب في الحادي والعشرين، أسمر، نحيف البنية، هادئ الملامح، أقصر منه طولاً، ذو شعر أسود قصير، ويعتلي شفته العليا شارب قصير، يحدق بعينيه السوداوين مبتسماً لرفاقه الثلاثة الجالسين بالمقاعد الخلفية، وقد آثر الصمت والمراقبة.

و(محمود) يجلس إلى جوار النافذة اليسرى، والذي يكبر طارق بعام، كان يتميز عن رفاقه بوجهه العريض، وسمرة بشرته وشاربه الخفيف، وبنظرات مغرور تحمل دهاء، لم يكن عليه سمات التباهي إلا بشيء ما كان يداعب فكره، لن يستطيع أحدٌ إدراكه من أول لقاء، حتى يبدو للناظر بأنه قائد المجموعة وحكيمها المحنك.

و(صبري) الذي اختار الجلوس في المنتصف حتى يكون الجميع في متناوله، يجول بنظراته بينهم ويحادثهم، كان أقرب لطارق شبهاً في العمر والطول والقامة وحتى المرح، إلا أنه بشرته

كانت تميل للسمرة، ويترسم على وجهه شارب ولحية قصيرين، ويضع نظارة طبية أمام عينيه السوداوين، وتفرد عن البقية بثرثرته وردوده المستمرة.

وعن يمين صبري كان (وليد) أقصر فرد في المجموعة، ممتلئ الوجه والجسد، وزاد ضياء وجهه الأبيض سواد شعر رأسه القصير وشاربه ولحيته، مدد جسده واسترخى على الكرسي، وسمح لكرشه الصغير بالبروز في هدوء، وترك الثرثرة جانباً مستسلماً للنوم.

انطلق طارق بسيارته لتخترق الريح وهو يعيد الابتسامة لوجهه متجاهلا ما شاهده قبل لحظات، فبقدر ما كان انزعاجه إلا أنه يجيد إبعاد الضيق عن نفسه، وحين اقترب من أسوار الجامعة أبطأ من سرعة سيارته ثم دلف عبر البوابة.

كان السور يحتضن مدينة جامعية كبيرة قيد البناء في منطقة (فُلك)، مساحة صحراوية واسعة تطغى على المكان، تتخللها مجموعات من الأبنية البيضاء، وكل مجموعة بعيدة عن الأخرى عكست حزم الشمس الذهبية فبدت كلآلئ في وسط الصحراء، لا يربط بينها إلا أرصفة طويلة.

اتجه طارق بسيارته نحو أحدها قاطعا الطريق الأسمنتي الطويل، وعن جانبيه مر الطلاب والطالبات، الدكاترة والأساتذة وهم يتوافدون إليها إما سيرا على الأقدام، أو بالحافلات، أو بسياراتهم الخاصة لتقف بمرآب خاص بها.

وعند المرآب الملحق بكلية الهندسة، أوقف طارق سيارته فجأة في حركة مقصودة، فارتفع أزيز محركها وصوت عجلاتها على نحو ملفت، متخذة موقعها بين عدد من السيارات الواقفة، على إثرها استيقظ وليد وهو يتمطط ويمدد جسده، ثم قال في تكاسل:

-هل وصلنا؟

قال طارق وهو يلتفت إليه:

-صباح الخير يا سيد وليد، هل أحضر لك الشاي أم أجلب لك البطانية لتكمل نومك؟

ابتسم رفاقه في سرور لطرفته، وخرجوا من السيارة حين قال وليد وهو يتبعهم ويقول:

-بل أرسل لي البطانية وجزاك الله خيراً.

ضحك وهو يجيبه:

-بكل سرور.

قال ناصر:

-ما هذه الحركات والأصوات التي تضج آذاننا بها يا طارق؟

أطل من السيارة وهو يجيب ساخراً:

- وكأنك أول مرة يا ناصر تواجه ذلك؟ هذه أحد فنيات الوقوف بالمرآب.

ضحك زملاؤه على كلماته الأخيرة، بينما حثهم محمود على الإسراع وهو يشير بيده، قائلاً:

- هيا يا شباب إلى القاعة قبل قدوم الدكتور سامي، بقيت دقيقتان على بدء المحاضرة.

أسرع الشباب الخمسة نحو مدخل مبنى الكلية الملاصق للمرآب، أعلاه لافتة كُتب عليها (كلية الهندسة الكيميائية)، كان المدخل مكتظا بالطلاب والطالبات، بينما تطلع طارق لمحمود وهو يخلع نظارته كاشفةً عن عينيه البنيتين، ثم توج بها رأسه حين وضعها على شعره الأسود القصير الناعم، قائلاً في سخرية:

-سامي أكسيد الكربون، ألن يتبخر هذا العجوز ويتحد مع أي عنصر في الجو بعيداً عن هنا يا محمود؟

انفجر محمود وبقية رفاقه ضحكاً، قال محمود مقاوماً نوبة الضحك:

- سوف تتحد بالباب إن اصطادك الدكتور بعد دخوله.

اتسعت ابتسامة طارق، وهو يقول:

-لن أندم على هذا الاتحاد، على الأقل سأتخلص من ثرثرته.

- ستكون في عداد الغائبين.

- ليست المرة الأولى، ولكن حتى لا يشكوني عند أبي بسبب تكرار غيابي، سأتجنب هذا فقط.

أسرع الخمسة يدخلون القاعة الكبرى من باب أسفل المدرجات التي اكتظت بالطلاب والطالبات، كان اللون الأزرق هو ما يكسو مقاعدها التي تتسع لمائتي فرد، وستائر نوافذها التي أطلت على جانبيها، والأحاديث لا تزال تموج بالقاعة، لم يصل الدكتور سامي بعد، سر طارق ورفاقه لذلك، وصعدوا وصولاً إلى المدرج التاسع الأخير، انتبه محمود لوليد وهو يسترخي مجدداً على الكرسي، فابتسم له وقال:

-يبدو بأنك ستعود للنوم مجدداً، إنه مقعدك المفضل يا وليد.

-رغم استرخائي إلا أني لن أنام، فمعدل المزاح اليوم عند طارق مرتفع جداً وأنا متابع لنكاته الآن.

فابتسم طارق له، بينما قال ناصر وهو يلقي ببصره ناحية الطلاب بالمقاعد الأمامية:

-هل رأيتم تلك الفتاة في المدرج الثاني إلى اليمين؟

قال محمود:

-لا، فالقاعة مكتظة بالطالبات، وكلهن يرتدين السواد.

سأل طارق:

-وما بها حتى تهتم بها هكذا؟

- تبدو غريبة عن الدفعة.

- وما المشكلة؟ جديدة سجلت بالكلية لتتبخر مع محاضرة اليوم.

- كان وجهها مكشوفاً رغم أن نصفه بدا محترقاً.

بدا الفضول على وجه طارق وحدق حيث مكانها، فلم يتمكن من رؤيتها وهو بالصف الأخير، ولا يرى إلا أظْهر من هم أمامه، وجموع الطالبات كلهن لا يرتدين إلا العباءات والحجابات السوداء، فلم يكن يستطيع تمييز شيء، فقال لناصر:

-وكيف استطعت رؤيتها؟

-حين دخلنا القاعة لمحتها، هي الوحيدة بين الفتيات لا ترتدي نقاباً.

رد طارق في سخرية:

- أولى بها أن تخفيه طالما هو هكذا، لِم تكشفه إذن؟

هز ناصر رأسه وهو يقول:

-لا أدري.

- ربما تريد إخافتنا.

فابتسم وليد وقال:

-ومن يخيفك أنت؟

لحظتها، أطل الدكتور سامي على القاعة بجسده الذي نُحت بفعل سنوات تجاوزت الخمسة والخمسون عاماً، وتركت معالمها على شعر رأسه وشاربه ولحيته القصيرة فاستحالوا إلى اللون الرمادي، وعلى عينيه السوداوين فأضعفتهما مما ألجأه لارتداء نظارة طبية سميكة ظلت ملازمة له وطالع بها الحاضرين وهو يسلم عليهم بصوته الأجش، كل ذلك مع ملامح الجد المرتسمة على محياه وهندام بدلته الأنيقة فرضت هيبته أمام الجميع باستثناء طارق ومجموعته. أمسك الدكتور بمكبر الصوت بادئاً محاضرته، وهو يقول:

- في محاضراتنا السابقة، تطرقنا لبعض عناصر الجدول الدوري وصفاتها؛ لكني وجدت معظمكم قد نسوها بسبب استرخائكم سنة كاملة أو ربما أكثر، لذا أرجو أن تعيدوها علي قبل الولوج إلى موضوع اليوم، ستعانون بعض الصعوبات في الدراسة من حيث اللغة

ولاسيما في بداية المشوار، لأن نمط الدراسة هنا مختلف كلياً عن الثانوية، أرجو منكم المثابرة والمتابعة فهذه المادة ممتعة جدا... هيا، لنبدأ.

بدأ الطلاب الموجودون بالمقاعد الأمامية الإجابة والمشاركة مع الدكتور، أما طارق ورفاقه فقد كانوا هادئين في أماكنهم وكأن السؤال لا يعنيهم في شيء بل إنهم أرخوا أجسادهم على الكراسي وكادوا يحذون حذو وليد، لولا أن أيقظهم ناصر وهو يقول:

- تلك الفتاة التي تتكلم الآن هي من أخبرتكم عنها.

لم يبدُ الاهتمام على طارق وهو يضع يده أسفل ذقنه ويقول:

- لن أتمكن من رؤية وجهها من هنا ونحن لا نرى إلا أظْهر الطلاب.

استمع كل من في القاعة لحديث الفتاة وهي تشرح العناصر وتذكر صفاتها وكأنها حضرت تلك المحاضرات السابقة، مستوى لغتها الانجليزية عالية متقنة، معلوماتها مميزة، ألجمت الجميع وأدهشتهم بحديثها ونبرة صوتها الواثق الرقيق الذي سمعه الحاضرون عبر مكبر الصوت حتى طارق ورفاقه أصابهم الخرس للحظة.

ثم هز صبري رأسه وهو يستمع لإجابة الفتاة وقد بدا على وجهه اهتمام كبير، ولما انتهت، قال في سخرية:

-الظاهر أنها تسترق السمع للمحاضرات، كيف لها أن تجيب بهذه السرعة والإتقان وهي لم تحضر من قبل؟

هز طارق رأسه مؤيدا في ابتسامة، بينما ابتسم الدكتور سامي فخوراً بها، وطلب إليها أن تدون له بعضاً من العناصر التي ذكرتها على السبورة، نهضت من مقعدها في هدوء وخطت خطوات متزنة غير مرتبكة نحو هدفها، ثم تناولت القلم من أستاذها وكتبت ما أراد، كان خطها جميلا مرتباً، فابتسم الدكتور في رضى، وحين التفتت إليه ظهرت جلية أمام الجميع وعيونهم تتطلع لتلك الغريبة التي برزت خلال لحظات قليلة من بدء اليوم الدراسي.

شابة عشرينية في مقتبل العمر لم يظهر ذلك إلا من نصف وجهها الأيمن ذو البشرة التي كانت تميل للاسمرار قليلاً، أما نصف وجهها الأيسر فقد اعتلته ندبة حرق قديم بنية اللون التهمت بشرتها وسببت تجاعيدها قبل الأوان وانكماشها وانكماش جفني عينها اليسرى مع اختفاء أثر شعر الحاجب أعلاه، بدا وجهها مع هدوئها وحزمها مخيفاً، أما جسدها النحيف فقد أخفته بحجاب وعباءة غارقين بالسواد.

أثار منظرها الصدمة والارتباك على معظم الحاضرين، كيف جمعت بين النباهة والبشاعة في آن واحد؟!

لم يبدُ على الفتاة أي ارتباك حين علت همهمة خفيفة في القاعة، بينما قال طارق في فضول:

- ما اسمها؟

أجاب ناصر:

-لا أعرف، لم أرها إلا اليوم.

- المزدوجة، هذا هو اسمها.

كاد ناصر ورفاقه يقهقهون ضاحكين لولا أنهم تمالكوا أنفسهم، ووليد يقول:

- قلت لك معدل المزاح عندك مرتفع جداً اليوم، ستوقعنا في ورطة مع الدكتور.

- أنت بالأساس مستيقظٌ لنكاتي.

صمت رفاقه مقاومين لنوبة الضحك مرة أخرى، حين سأل الدكتور سامي الفتاة، وهو يقول:

-ما اسمك؟

- ضياء.

- تفضلي لمقعدك يا ضياء، لقد أثلجتِ صدري بمعلوماتك القيمة.

- شكراً دكتور.

ابتسمت ضياء لثناء أستاذها، وعادت لمقعدها بكل هدوء ونظرات الجميع لا تزال عالقة بها، والهمسات قد بدأت تهدأ حين التفت الدكتور لهم، قال طارق ممتعضاً:

- ضياء! ما هذا الاسم الشاذ الذي لا ينطبق عليها أبداً، كان أولى بها أن...

قطع طارق عبارته حين أحس بأن نظرات الدكتور تتوجه نحوه رغم أنه لم يسمع حديثه فهدأ مكانه، واستأنف الدكتور شرح المحاضرة.

في فترة الاستراحة، كان الطلاب قد غادروا القاعة إلا قلة، ومن بينهم ضياء التي جلست مكانها تقرأ في أوراق بين يديها وتناقش فتاة في مثل عمرها، ذات بشرة بيضاء لم تبن إلا من

يديها الظاهرتين من جسدها، إذ أن جسدها كله مخفياً بحجابها وعباءتها السوداوين، وارتدت نقاباً أسدلته على وجهها فلم يظهر إلا عينيها البنيتين الحادتين، أخذت تحادثها بكل سرور وتبتسم رغم أن ابتسامتها لم تظهر كثيراً بسبب نقابها، قالت ضياء لها مبتسمة:

- أشكرك جداً لإفادتي، لن أؤخرك عن الاستراحة، يمكنك الذهاب يا سحر.

- لا مشكلة عزيزتي، يسرني أن أساعدك.

وابتعدت عنها سحر لتغادر القاعة، بينما نظرت ضياء لفتاة أخرى تجلس خلفها وهي تسألها:

-ما هي الموضوعات التي أخذتموها في الفيزياء؟

نهضت الفتاة سريعاً وهي تقول في ضيق:

-سأخبرك لاحقا.

ابتعدت الفتاة لتتجنب الحديث إليها، فأحست بذلك منها، وأدركت أن منظر وجهها هو ما سيكون سبباً في إبعاد من حولها عنها ونفورهم منها.

كيف لمن حولها وهم أرقى الناس فكراً أن يحكموا بظواهر الأمور قبل أن يدركوا بواطنها؟ تساءلت في نفسها، وكاد الحزن أن يسيطر عليها حتى لمحت في تلك اللحظة نظرات طارق المحدقة بها، تجاهلته وأعادت بصرها إلى مذكرتها وهي تستعيد حزمها وجلدها، ومضت تدون فيها.

قال طارق في ضيق لرفاقه وهم يغادرون القاعة:

-لا أدري لِمَ يحدثها بعض الفتيات بكل طيبة هكذا دون أن يشمئزوا من منظر وجهها.

رد محمود:

-سيتجنبها الجميع ثق في هذا، رأيت بنفسك ردة فعل الفتاة الثانية منذ لحظات، فعلاً منظرها يزعجني ويثير اشمئزازي.

فقال صبري:

-دعوكم منها، لدينا اجتماع نهاية الدوام لأجل فريق تنس الطاولة، وأنا سأشترك، هل ستنضمون معي ممثلين للدفعة؟

رد ناصر:

-بالطبع أنا معك يا صبري، أحب هذه اللعبة.

قال طارق:

-حسنا لنذهب إلى مقصف الكلية، وهناك سنناقش هذا الموضوع.

- لقد سمعت بأنها من عدن.

- نازحة بسبب الحرب؟

- نعم.

-وجهها مخيف.

- تبدو لي بأنها فتاة ذكية وقوية شخصية.

– أتفق معك، لأنها لو كانت خلاف ذلك لما أجادت الإجابة عن السؤال والنهوض من مقعدها في أول يوم لها بالجامعة بجرأة ودون أي ارتباك رغم وجهها المخيف.

– يبدو لي بأنها فتاة سيئة حتى أصبح وجهها بكل هذا التشوه.

– أتمنى ألا تسيء إلى أحد ذات يوم.

كونها غريبة عن المدينة، غريبة عن الجامعة، غريبة في منظرها، ذات ثقة كبيرة، وهادئة في تعاملها مثيرة به الغموض، متميزة في فطنتها وذكائها، تناهشتها عيون الفضول، ولم تسلم من سياط الألسن حولها، صارت منذ أول يوم وجبة حديث دسمة لمعظم شباب وفتيات الدفعة بل ربما كل من في الكلية.

كلما مر طارق ومن معه على مجموعة تناهى إلى أسماعهم حديث بعض الطلاب والطالبات عنها، قال محمود:

–إذن هي نازحة من عدن.

قال ناصر مستدركاً أمراً:

–صحيح طارق، والدك لا يزال...

قاطعه طارق وهو يشير بيده ويقول في عصبية:

–اُصمت، قلت لك بأني أكره الغرباء، فلا تذكرني بعمل أبي مع هؤلاء المتطفلين على مدينتنا، إني أمقتهم مهما كان سبب قدومهم، وأكره هذه الفتاة أيضاً، ما الذي أتى بها إلينا؟ لتعد لمدينتها.

ثم أبعد ضيقه وهو يقول مبتسماً:

-لكن، وبعد كل هذا، ستعلم بأن أحداً لا يرغب في وجودها هنا، ما هي إلا أيام قليلة وتقرر الرحيل عنا.

لم يكن النهار نهاراً على ضياء، بل ليلاً أضيء بجمرة أرادت حرق كل عزيمة في قلبها وإفناء كل أثر لها.

تناهى إلى سمعها كل تلك السمفونيات التي عُزفت على أوتار الظنون والاحتمالات وهي تقطع طريقها بالممر قرب تلك الجموع لوحدها، سمفونيات لم تبث أي سعادة، بل حزناً على قلبٍ أضنته رحلة طويلة لم يُعرف منها إلا القشور.

كان لا بد أن تتجاهل كل شيء، فألقت بكل ما سمعت خلف أذنها، لتمضي نحو ما أرادت وما دفعها للقدوم إلى هنا، مضت بكل ثقة غير عابئة بما يحاول تبديد فكرها عن جو الدراسة ومستقبلها المنتظر.

انتهى اليوم الدراسي مع نهاية الدوام، لكنه لم ينتهِ بالنسبة لها.

هو بداية رحلة كفاح ستحتاج فيها إلى شحذ كل حزم وهمة في نفسها لتواجه في كل يوم قادم سيلاً عارماً من النظرات، وهجوماً قاسياً بالألسن لا تدري كيف ستكون شدتها ومداها، شدت على قلبها برباط العزيمة، وغرست فيه الإيمان بهدفها، لتحث نفسها على المضي قدماً في دربٍ تكتنفه الآلام.

وما شد من أزرها وجود سحر بقربها، تلك الفتاة التي لم تتجنبها كما فعل الآخرون، بل رحبت بجلوسها إلى جوارها، وحادثتها وكأنها تعرفها منذ زمن، وأثنت على ذكائها وفطنتها متجاهلة ذمامة وجهها، حتى أنها لم تسألها:

-كيف حدثت هذه الإصابة؟ وما هي قصتك؟

أسئلة كانت تلتمع في أعين الجميع والفضول يقتلهم إلا هي.

وحين تؤثر ضياء الصمت لتجلس وحيدة مع مذكراتها ومحاضراتها الجديدة، تجدها تسرع إليها لتمد يد المساعدة لها، وتبدد عنها شعورها بالوحدة والغربة، أحست بارتياح بالغ نحوها، وحملت عنها حِمل يومها الأول الذي كاد أن يكون ثقيلاً على قلبها.

ومع الاستعداد للمغادرة، أخذت ترتب بعض أغراضها في حقيبتها وهي لا تزال جالسة في مكانها، فقالت لها سحر في ابتسامة:

-أرجو أن تكون بيننا لقاءات خارج الجامعة يا ضياء حتى تستطيعين إدراك ما فاتك من محاضرات قبل موعد الامتحانات.

-سأحاول ذلك يا عزيزتي، شكراً لكِ.

-العفو، والدي سيمر بعد لحظات لاصطحابي بسيارته، دعينا نعد سوياً إلى المكلا.

-لا، سأستقل الحافلة، يمكنك الذهاب، لا أريد أن أكون برفقتك دائماً حتى لا أسبب لك المشاكل بسبب منظري.

عقدت حاجبيها، وقالت في حزم:

-ما هذا الكلام الفارغ؟ أنتِ فتاة طيبة يا ضياء ولن يدرك الجميع ذلك إلا إذا تعاملوا معك وعرفوا طيبة قلبك ورقي خلقك.

أجابتها وهي تنكس رأسها في حزن:

-لا أستطيع ذلك وأنا...

قاطعتها وهي تقول في حماس:

-سأجعلهم يدركون ذلك.

سألتها في اهتمام:

-كيف؟

-لا تقلقي وثقي بي.

-أشكرك جداً.

ابتسمت لها وودعتها وهي تصافحها بحرارة ثم انصرفت، بينما عادت ضياء لتكمل ترتيب أغراضها والابتسامة لا تفارقها.

و من مقاعدهم، كان طارق ورفاقه يراقبونها، فقال صبري:

-يبدو بأن المزدوجة لم تظفر إلا بصداقة سحر، الجميع يتجنبها كما توقع محمود.

لحظتها، قفز طارق من مكانه مسرعاً، فسأله محمود:

-إلى أين يا طارق؟

-راقب فقط.

قال ذلك وهو ينزل درجات القاعة حين نهضت ضياء وهي تحمل حقيبتها، فنادى عليها بصوت هادئ متزن:

-آنسة ضياء.

التفتت له، فقال مبتسماً:

-أهلاً بك بيننا يا أختي.

لم تبتسم وهي تتذكر نظراته نحوها في أول الدوام.

عيناه بجمالهما الساحر وحدهما كانتا تفضيان لها بما يكمن في صدره نحوها؛ سخرية واشمئزاز وربما كراهية، بوحهما كان متناقضاً تماماً عما نطق به لسانه الآن؛

(أختي!) ما أجملها من كلمة، وما أقبحها في مقام ساده التهكم والاحتقار، إن للعينين رسائل صادقة لا يستطيع اللسان بخبث أحرفه أن يخفيها، ردت عليه بحزم:

-أهلاً بك.

-لقد عرفت بأنك من عدن وغريبة عن المدينة، لذا إن احتجت لشيء في شأن الدراسة فكلنا سنساعدك، لن تشعري بالغربة بيننا.

-لن أشعر بالغربة وبوادر حربٍ باردة عليَّ تلوح في الأفق!

قالت ذلك باستنكار في نفسها، لكنها أجابته:

-شكراً لك، ائذن لي.

وانصرفت من أمامه، بينما اقترب ناصر ورفاقه، وهو يسأل:

-ماذا استفدت من هذا؟

هز رأسه، وهو يقول في سخرية:

-لا شيء، وحيدة قلنا نواسيها ونداري حزنها.

ضحك رفاقه، ووليد يقول:

-يا لك من خبيث.

ابتسم وقد راقت له كلمته التي جعلته يهز رأسه في زهو زائد، ثم ارتدى نظارته السوداء وغادر مع رفاقه ليعودوا إلى مدينتهم.

المكلا... الملكة الشامخة في مملكتها المتألقة.

مدينة تتلألأ كل يوم، تستقبل نسمات بحر العرب، وتلتمع على طول شطها عقود الذهب واللؤلؤ مزينة صدر تلك المدينة التي حصنتها الجبال الباسقة وأحاطت بها كأسوار قصر عتيد يستقبل زائريها، ويحميها من أعدائها.

لقد حُق لها أن تكون (ملكة) تتجلى لكل ناظر في شموخ ودلال غير عادي.

حملت الطرقات طارق ورفاقه إلى (حصن الغويزي) المعلم الأثري البارز الذي يستقبل الوافدين، ويراقب بحزنٍ تهكمات (العصبة) وهم يستوقفون السيارات والمارة مسببين الازدحام كما كان في الصباح.

ابتلع طارق ضيقه وهو يتجاوز نقاطهم واحدة تلو الأخرى بعد ساعة حيث بلغت فيها الحركة وازدحام الطرق بالسيارات والمارة إلى أوجها، في (الديس) و(باعبود) وصولاً إلى منطقة (أربعين شقة) لكن ضيقه بلغ منتهاه حين أطل على مشارف منطقة سكنه (فوة)، ووقع بصره على عمارة كبيرة كُتب عليها مؤسسة (الرُبا للعقارات والمقاولات العامة) ورأى عدداً من الرجال يدخلون إليها، بينما يقف آخرون حولها، قال وهو يحدق بالطريق أمامه وينظر بين الفينة والأخرى إلى المارة الذين اكتظت الشوارع القريبة من العمارة بهم:

-إلى متى سيظل هؤلاء المتشردون؟

قال محمود في ضيق مماثل حين أدرك مقصده:

- تقصد النازحين؟ لا أدري ما هو السبب الذي يدفعهم للبقاء هنا رغم أسر مدينتنا وتحرر مدينتهم.

-لقد وجدوا من مدينتنا مرتعاً لهم يسرحون ويمرحون فيها، وكل اللوم يقع على من يتعاطف معهم.

قال وليد:

-ووالدك واحدٌ منهم، ألم تَرَ كثرة الوافدين إلى مؤسسته (مؤسسة الرُبا)؟ والدك عبد الكريم سخي وطيب معهم، يساعدهم ليجد أماكن تؤويهم.

قال صبري في حزم:

-لِم تصر دائماً يا طارق على إزعاج نفسك بهم وقد ألفت وجودهم شهوراً عدة، وألفت عمل والدك؟

أطلق طارق زفرة ضيق قوية وهو يقول:

-تلك الفتاة ذكرتني بهم وبعمل أبي تجاههم، ليته يعرض عنهم ليدركوا بأنهم عبء علينا وعلى مدينتنا.

قال ناصر:

-الوضع الآن صار أهون بكثير مما كنا عليه منذ أبريل العام الماضي، أتذكر ذلك اليوم المشؤوم الذي دوت فيه أصداء الرصاص وطلق النار حين...

قاطعه بحدة وهو يمسك بالمقود بعصبية وقوة:

-تعلم أن هذه الأمور لا تعنيني في شيء، أنا لا أذكر منها إلا اليسير، ولا أريد أن أفكر بها، فلا تروي شيئاً.

تنهد ناصر في عمق وهو يقول:

-نسأل الله أن تنقشع هذه الغمة علينا.

أمن الجميع على كلامه، ثم أوصل طارق رفاقه إلى أماكن سكنهم وودعهم، ثم مضى في طريقه وهو يقول لنفسه:

-أتمنى أن يقتنع أبي وأمثاله، المكلا بهمها لا تتسع للمزيد من حثالة البشر.

*****